

نشاط آلية النماهي وإخراج صورة الجسد في الحلم (نتائج لدراسة ثلاث حالات عيادية)

أ. عبد المومن الهواري أ. شريك نور الايمان
جامعة سعيدة

مقدمة:

من بين الطرق الضرورية في دراسة الشخصية نجد تفحص الأحلام وروايتها وتأويلها من أهم ما يعين في فهم شخصية الفرد واكتساب ثقته. والحلم باعتباره إنتاجا نفسيا جسديا تشترك فيه المناحي التكوينية العصبية والنفسية عند الفرد الإنساني يمكن اتخاذه كأساس من بين أسس معرفة الشخصية.

ووفق نظرية التحليل النفسي فالحلم هو استجابة لحوافز نفسية وجسدية ملحة، وحاجات وتوترات ناشئة عن نقص تلبية المطالب النمائية الجسدية والنفسية. ويمكن أن يجتمع في العمليات العقلية النهائية ما يستطيع الحلم تضمينه من مختلف حاجات الرائي أو الحالم: الرغبات الملحة، الصراعات غير المحسومة، معالجة البقايا النهارية¹. وثبتت الخبرة التحليلية أن الأحلام ضرب من اللغة الرمزية التي تتصل بخبرة الحالم الذاتية وفي نفس الوقت يمكن أن تهمل من الرمزية المشتركة للجنس البشري. إذ تشترك في ذلك مع الإبداع الفني والمرض النفسي².

ولأهمية دراسة الأحلام في علم النفس ودورها في التشخيص النفسي وفهم حالة ذوي المعاناة النفسية يمكن أن نتساءل عن دور الأحلام في عمليات إرصاد الصورة الجسدية كضرورية نمائية، ونتساءل عن الآليات النفسية التي تقوم بإخراج الحلم كاستجابة يمكن ربطها بالتوظيف النفسي لدى الفرد.

ويمكن طرح عدة مفاهيم للتحليل النفسي كمنحى لتبين الحتمية النفسية من أجل فهم آلية عمل الحلم وصياغته، فنجد مفهوم الكلمة والصورة، والعمليات النفسية مثل التكثيف والإزاحة والتوظيف النفسي.

الكلمات المفتاحية: إخراج الحلم، الرمزية، صورة الجسد، إرصاد نفسي. الإزاحة، التكثيف، تصور الشيء وتصور الكلمة. التماهي.

الرمزية وإخراج المشهد في الحلم:

جعلت مجموعة من الأبحاث في تفهم الرموز وتأويلها في معالجة الأحلام أمرا محتوما. فالتبرير الأول هو أن مادة الحلم لا يجب قبولها على ظاهرها، بل يتم تأويلها استنادا إلى محددات معلومة.

ويمكن تعريف الرمزية: على " أنها أسلوب من التصوير غير المباشر والمجازي لفكرة أو صراع أو رغبة لاواعية، وبهذا المعنى يمكننا في التحليل النفسي اعتبار كل تكوين بديلا رمزيا"³.

و " بالنسبة للعلامة وبخاصة في الأنظمة المنطقية الشكلية، يعتبر تعدد القيمة خاصة سلبية، (...)، وبالعكس، كلما تعددت قيمة الرمز، كلما كان مضمونه أكثر ثراء"⁴.

وتتعلق الرمزية بصورة الجسد التي تتضمن كمفهوم ومصطلح المسالك العقلية التي يكون بها الفرد صياغة لجسده كجزء تقوم به ذاته. ويشير العلماء بمفهوم صورة الجسد إلى كل ما يشعر به الفرد سواء بوعي أم بدون وعي متضمنة المشاعر ومختلف الأحاسيس والتخيلات وحتى أساليب تنظيم الخبرات الجسدية⁵. وحسب

سيلاحي يمكن تعريف الجسد بوظيفتين رمزيتين أساسيتين، الأولى منهما تسمح بوجود ربط ديناميكي بين أجزاء الجسم مأخوذاً بكيّيته وحدوده ووحدته، والثانية منهما ما يوجد وراء الشكل الظاهر، أي المحتوى والمعنى الذي تباشره الاختبارات النفسية والمقابلات العيادية. وبالمجموع ندرك كيف تقوم صورة الجسد كبنية في كلية ذات حدود واضحة⁶.

صورة الجسد في الأحلام:

وفي الحلم تظهر الرموز لتصوير أفكار محددة الرغبات والخبرات تصويراً مقنعاً متلائماً مع مادة اللاشعور الخاصة بالفرد. إذ يستمد الحالم من مادة ذكرياته الخاصة وبسهل خلال ذلك مرونة الوظيفة النفسية⁷. كما أن للانفعالات علاقة قوية بميل الشخص الحالم وطريقة الإدراك التي يتبناها. وقد ذكرت الدراسات المتخصصة أن المريض الجسدي يعكس اضطرابه في الحياة الحلمية اللاشعورية كما في الأحلام؛ بل وتحسن الحياة الحلمية يستتبعه تحسن للحالة الجسدية. ذلك أن التحسن هذا إنما يعكس وظيفية الجهاز ما قبل الوعي وتالياً تحسن الحالة النفسية للمريض وبالتالي تحسن حالته الصحية - الجسدية⁸. ويتضافر عمل الرمزية مع آليات نفسية عدة يتم إخراج الحلم " وإخراج الحلم في التحليل النفسي هو عملية تكيف الرغبات اللاشعورية أو المكبوتة وتشكيلها في أشكال مقبولة يمكن التعبير عنها في حالة الشعور"⁹.

وتتصل مشاهد الحلم بالخبرات الحساسة لدى الفرد، وتتصل بالرغبات التي لم يكتمل إشباعها. كما أن نتائج هيد وشيلدر حول صورة الجسد من الزاوية السيكاثرية والنيورولوجية قد امتدت إلى أن قررا أن صورة الجسم تتغير من خلال كل وضع أو تغير جديد للجسم وأن نمو صورة الجسم تتوقف على الاتصال الاجتماعي وهي أساساً عملية لا شعورية¹⁰ أو يمتنع قبولها بسبب المعايير المختلفة. إن مثالا مناسباً نجده في تأويل المحلل النفسي مصطفى زيور لحلم "... فتاة رأت رجلاً يحاول أن يمتطي فرساً صغيراً أسمر اللون عصبي المزاج فيفشل ثلاث مرات (...)", قالت هذه الفتاة عن الفرس الصغير أنه من النوع السيبي، ولما أطلقت خواطرها على سجيّتها ذكرت أن أهلها ومعارفها يدعونها سوسو، وأن والدها كان يدعوها أحياناً سيبي لكثرة قفزها، إذن فهي السيبي. وها هي الآن تنبه الآن إلى أن ما ذكرته من أوصاف الفرس ينطبق عليها. فهي أيضاً سمراء اللون، عصبية المزاج"¹¹.

الآليات الدفاعية، عمل الإزاحة ومفهوم تصور الشيء وتصور الكلمة:

تصور الشيء وتصور الكلمة:

ما هي العلاقة بين صور ومشاهد الأحلام واللغة التي تؤول إليها عند التأويل؟ في الحلم يتم تأسيس مشاهد نفسية - جسدية تكامل بين الوصف في النهار والحلم في الليل؛ ويدخل صاحب هذا السلوك في برمجة لغوية - عصبية تؤثر على الإدراك والتصور، وليكون إنتاج الحلم مليئاً بمشاهد التي تربط الشعور باللاشعور. مثلاً نجد في تأويل المحلل النفسي مصطفى زيور لحلم الفتاة حيث تم ربط علاقة بين اللقب الذي اكتسبته من تسمية والدها لها " حصان السيبي" ثم رؤية حصان في الحلم تبين أنه من نوع السيبي وأن الذي يمتطيه هو خطيبها. فالتحويل في الحلم يخضع لعدة آليات نفسية من أهمها آلية الإزاحة في علاقة الشيء بالصورة والكلمة.

وبمفهوم تصور الشيء وتصور الكلمة الذي يطرح في التحليل النفسي نستطيع تبين العلاقة بين التصور اللاواعي للشيء وللتصور الواعي للكلمة وربط علاقة بين الحياة النهارية التي تنهياً للظهور في الأحلام والتي تسمى بالبقايا النهارية والمشاهد الحلمية؛ ودورها في ظهور الشخص في الأحلام، والذي يساهم في إرسان الصورة الجسدية. وفحص مدى تأثير الكلمة والتصورات المرتبطة بها، وعلاقتها بتصورات الشيء أي علاقة ارتباط الاسم بالمسمى. فهذا التصور يحيلنا على فارق يعطيه فرويد قيمة أساسية في نظريته عن الجهاز النفسي. فتصورات الشيء التي تميز نظام اللاوعي تكون على صلة مباشرة مع الشيء¹² وهو الشيء الذي كان يجده المريض النفسي كما سنوضحه في الحلم أو الذهان.

إن التمييز الذي طرحه فرويد يهيئ لنا مخططاً لفهم بعض "التصورات؛ البصرية منها أساساً التي تشتق من الشيء والسمعية منها أساساً التي تشتق من الكلمة (...)، حيث يميز ارتباط تصور الشيء بتصور الكلمة المقابلة له نظام ما قبل الوعي - الوعي. خلافاً لنظام اللاوعي الذي لا يدرك سوى تصور الشيء (...)، فبينما يشمل التصور الواعي تصور الشيء إضافة إلى تصور الكلمة المطابقة له. يقتصر تصور اللاوعي على تصور الشيء وحده"¹³ فالحلم والذي يتميز بغلبة التصورات المتعلقة بالشيء أكثر مما تحضر فيه اللغة نجد عودة تصورات لها علاقة باللغة التي هي مآل التأويل للحلم.

آلية الإزاحة والتكثيف:

وهكذا بالضرورة يتم تأسيس مشاهد نفسية - جسدية تكامل بين الوصف في النهار والحلم. و" ترتبط الإزاحة في تحليل الحلم؛ ارتباطاً وثيقاً بأليات عمل الحلم الأخرى: فهي في الواقع تسهل التكثيف بالقدر الذي تؤدي فيه الإزاحة على طول السلسلتين من الترابطات إلى تصورات أو تعابير لفظية (...). كذلك تتيسر إمكانية قابلية التصوير حين يحدث انتقال من فكرة مجردة إلى صورة بصرية مكافئة لها بواسطة الإزاحة"¹⁴. فآلية الإزاحة التي تعني " نقل انفعال أو تعلق عاطفي من موضوعه الأصلي إلى بديل عنه"¹⁵ تساهم في إخراج الحلم بالاستعانة بالذكريات التي توفرها الخبرات.

ويأتلف مع عمل الإزاحة عمل آلية التكثيف التي تؤسس الرمز وتقدم بناءه بطريقة تسمح بها الرقابة وتختصر بها الحلم. فآلية التكثيف تتجلى في ظهور صورة تحتوي أكثر من شخص في الشخص الواحد. أو تظهر فيه سمات هي بالتحليل لشخص آخر. وهذه السمة يجب أن يبرر ظهورها بفك الرمز. ف" قد تجتمع عدة عناصر في وحدة مزيجية (شخص مركب مثلاً)، أو قد يؤدي تكثيف عدة صور أيضاً إلى طمس السمات التي لا تتطابق عند كل الأشخاص، كي لا يبقى منها إلا السمة أو السمات المشتركة التي تتعزز في هذه الحالة"¹⁶.

التماهي مع الآخر الذات في الحلم:

يعرف التماهي على أنه: " عملية نفسية يتمثل فيها الشخص بواسطتها أحد مظاهر، أو خصائص أو صفات آخر، ويتحول كلياً أو جزئياً تبعاً لنموذجه. تتكون الشخصية وتتمايز من خلال سلسلة من التماهيات"¹⁷. وأحدث التأمّلات في مفهوم التماهي؛ تلك التي تعطي أهمية شديدة لما هو جسدي، وتعطي في نفس الوقت مكاناً متنامياً للتنشئة الاجتماعية في ارتباطها بتلك العملية. وعند هسنار Hesnard فمن النماذج؛ هناك " تماه بنيوي، يسمح للفرد بأن يتشكل في علاقته مع الآخر (...) من خلال الاتصال اللغوي"¹⁸، ونورد في

التالي طائفة من الأحلام لحالات من ذوي المعاناة النفسية يمكن تقديمها لتبيين إرصان صورة الجسد في الأحلام ونشاط آلية التماهي.
الحالة الأولى:

تدور شكاوي صاحب هذه الحالة حول إهماله في صغره من طرف أمه حيث لم تعتني به كما يجب. وينظر إلى أبيه أنه لم يعطه كفايته من الملابس كإخوته، ومن أهم ما نذكره عن هذه الحالة هو تساوق التعبير اللفظي المتعلق بالجسد، ويوصف الآخر والأنا بوصف الحيوان. وكذلك الأحلام التي تتضمن رؤية الحيوانات بشكل مفرط إلى حد الإرهاق. وفي نفس الوقت وبتصريح من الحالة نجد غياب رؤية صورة الشخص في الحلم.

كان أول ما اشتكى منه هذا المريض هو إحساسه الدائم والسريع بالملل، الذي وصفه بأنه " ملل مسيطر". ولما أخبرناه بأن ذلك قد يكون راجعا لانشغال نفسي داخلي يستهلك طاقة المرء. توقف عن الحديث كمن لفت انتباهه إلى شيء جدي ثم قال: " أقول لك بكل صراحة. إنني أشعر أنني لست إنسان. بل لا أشعر بأي قيمة، رغم أنني ألبس الملابس الأنيقة".

بل وذكر الأحاسيس الحسية الغريبة التي يجدها فجأة على جسمه، فقد قال: " أنا أشعر بتتمل على جسدي، فكثيرا ما أحس بشيء كالكهرباء على جلدي".

وعن الأحلام أجاب: " نعم إنني أرى الحيوانات أرى الكلاب والقطط، أراها يوميا، أراها كل يوم، ثم إن هناك إحساس غريب أشعر به المرة بعد المرة. إنه تتمل أجد في سائر جسدي على جلدي كالكهرباء".

فهو يعاني من الرؤية اليومية لمشاهد الحيوانات في الأحلام لدرجة تجعله يعيش قلقا جدا بعد الاستيقاظ، وإذا كانت صور الأحلام عنده تعج بصور الحيوانات، سألناه فيما إذا كان يرى نفسه في الأحلام ؟ فنفي ذلك بشكل كلي. قال: " أنا لا أرى نفسي في الأحلام أبدا، أنا لا أرى إلا الحيوانات".

بالنسبة لأحلام هذه الحالة؛ فإنها تعج بصور الحيوانات. ورؤية الحيوانات في الأحلام نعتبرها دليل على الاضطراب مثلما أن " رائز الرورشاخ يؤكد القرابة ما بين الحيوان وحركته في نفسية الإنسان (...)، وكلما ارتفعت نسبة الأجوبة الحيوانية كلما ظهر الفكر هرما، متصلبا، تقليديا أو خاضعا لمزاج اكتئابي، فارتفاع نسبة الإجابة الحيوانية، دليل على ازدياد الاضطراب، (...)، فظهور الحيوانية في حالة الوعي هو إذن علامة لانهايار الإنسان لأسفل درجات الاضطراب"¹⁹. وعند هذا الشخص؛ فالصورة الحيوانية تسيطر على سلوكه في الأحلام وكذلك في مواجهة الآخر بالعدوانية. فوصف الآخر بالحيوان يدل على عدم القدرة على الانضمام إلى الواقع في العلاقة مع الآخر، حيث تترجم عدم القدرة هذه في صيغة الحيوان المستعصي على الترويض وعدم القدرة على التحدث معه لانعدام عنصر اللغة. والإخفاق في تسيير الجنسية والعدوانية يودي إلى التمثيل بالصيغة الحيوانية. فالقلق الذي يعتري الشخص نتيجة لمطالب مستهجنة وغير سوية هي التي تبتعث ضروب الخوف الطفلي. " والعلاقات الوثيقة بين القلق والصراعات الغريزية هي أكثر وضوحا في فويا الحيوانات، فليس عند الطفل عجرة الراشد التي تميل به للاعتقاد بوجود اختلاف أساسي بين البشر والحيوانات، فالطفل يتخيل بسهولة الكائنات البشرية في صور حيوانات، والحيوانات التي يخافها الطفل هي

كقاعدة عامة امتثالات محرفة لكائنات بشرية²⁰. ولهذا فوصف الآخر بالحيوانية هو شيء من النكوص في الإدراك الذي كان عاملا في مراحل النمو الأولى، و" يلاحظ أنه من السهل إسقاط العدوانية على الحيوانات أكثر من الأشخاص من أجل التعبير عنها في طابع نكوصي. وذلك نظرا لصعوبة تسييرها تجاههم بفعل الكبت"²¹.

أعطي التفسير التالي: أن سبب تكاثف رؤية الحيوانات ما هو إلا رؤية الأشخاص الذين نعتهم بأسماء الحيوانات، فأنت تمنحهم الاسم في النهار والصورة في الليل إنها علاقة الاسم بالمسمى. وسبب الخوف البالغ من رؤية الحيوانات في الأحلام هو تكملة لحالة الانفعال التي ترافق وصفهم أثناء النهار. وبشرح هذه العلاقة له مع ما تلقاه من متابعة نفسية اختفت نهائيا رؤية الحيوانات من أحلامه إلا نادرا مما يعهد عند أي حالم آخر.

والتعبير اللفظي إنما يصور نمط الإدراك عند هذا الشخص. كما أن المواد والأدوات ومختلف ما يحيط بالإنسان تخضع للنظام اللغوي الذي يستعمله. وهذا النظام له دور في إدراك الوقع. فاللغة حسب عالم اللغة الألسنية دي سوسير " تتألف من نظام من الإشارات. تكون كل إشارة فيه كيانا نفسيا يوجد في ذهن الإنسان²² والإدراك النفسي - المعرفي للصورة الصوتية " الدال" يجب أن يكون على ارتباط سوي مع المدلول الذي هو التصور الذهني للشيء المقصود أي صورة الشيء، وتسمية الأشياء بغير أسمائها وبوصف الآخر بغير أوصافه سيشكل بداية هذا العجز في التمييز. ونورد اختصارا للعلاقة بين بعض مشاهد الحلم لدى هذا الشخص وأنماط من التعبير اللغوي وبعض الاستجابات الجسمية:

- انفعال هذا الشخص وتسميته لنفسه وللآخر بأسماء الحيوان. وهذا يدخل الشخص في نموذج من التصور للآخر على أنه حيوان يتطابق من خلاله مع تفكير الطفل الذي يظهر في تخيالاته ولعبه نموذج التصوير الحيواني.

- وهذا الانفعال الذي يترافق مع تدني قيمة الذات التي أقر بها، والذي يترافق مع نعت الآخر بالحيوان نجده معادا ابتعائه في خبرة الحلم، فالقلق بعد الاستيقاظ من النوم هو تواصل للانفعال مع مشاهد الحلم. في علاقة الشعور مع اللاشعور وعودة المكبوت؛ ف "مريضة بروير الأولى (أنا أو. AnnaO) كان يعترها شلل في الذراع كلما تحركت في اللاشعور مشاعرها إزاء أبيها. ففي لحظة موت أبيها، كانت تجلس إلى سريرها وذراعها الأيسر مضغوط بين المقعد والسرير²³.

- تتولد مشاهد الصور الحيوانية كحلقة مكملة للتعبير اللغوية وتتابع الانفعالات في شكل مخاوف يستجيب لها جسديا ونفسيا، والتنتمل الفجائي الذي يجده مرة بعد مرة هو استجابة لاشعورية للتصور الحيواني والانفعال المتعلق به.

- التوقف عن الوصف الحيواني للذات والآخر مع المتابعة النفسية أدى إلى اختفاء المشاهد الحيوانية من الأحلام وظهور صورة الجسم كأول مرة للشخص. وتبع ذلك اختفاء التمثل الذي كان يجده على جسده. نجد فيه تأكيد للعلاقة: صورة الجسد وعلاقتها مع الاشتقاق اللفظي (تسمية الذات والآخر بلفظ الحيوان)، والمشهد في الحلم (رؤية الحيوانات)، والإحباط وتدني قيمة الذات (اتجاه متعلق بانفعال لاشعوري كونه يجد نفسه

أنه حيوان). والتتمل الجسدي (الذي هو رد فعل فيزيولوجي كتعبير عن الانفعال اللاشعوري وفي نفس الوقت لموضعة صورة الجسد في النموذج التصوري الحيواني أو الإنساني. التماهي والإرصان العقلي لصورة الجسد:

يتلخص الإرصان النفسي Elaboration psychique في إقامة صلات ترابطية بيت الإثارات والتصورات المختلفة بعمل الجهاز النفسي، والقصور في الإرصان يختلف حسب المرض النفسي، فغياب أو نقص حالات الإرصان النفسي يشكل أساس العصاب والذهان تبعاً لنماذج مختلفة، كما أن عمل العلاج النفسي هو إقامة الصلات الترابطية لجعل التلاؤم لمختلف الإثارات كجزء من الشخصية²⁴. وفي النشاط العقلي للحالة نلاحظ تكون صورة الجسد من البناء العقلي: الصورة، والكلمة. ثم من الحلم حيث هناك تلازم بين عناصر البناء الكلي.

الحالة الثانية:

أثمرت المقابلات مع صاحب هذه الحالة عن مجموعة من المعلومات: يقول عن نفسه أنه اتخذ القراءة لمختلف الكتابات طريقاً لتقوية نفسه، فعنده أن الروايات والقصص ميداناً لاختصار الزمن في التجارب. كما يجد نفسه قادراً على التصرف بعد كل فشل. ويرى في الحياة فرصة ثمينة مهما كان فيها من ثمن. ونعرض لشيء من أحلامه لتبين كيف يظهر عمل الجهاز النفسي في تناقض مع الحالة الأولى والحالة الثالثة.

الأحلام:

حكى هذا الشخص الحلم التالي: " رأيت شخصاً لا أعرفه، واقفاً أمام رجلين. وكان الرجلان يحدقان إليه بقوة، وحينما بدأ يشعر بالضعف من جراء نظراتهما إذ تخرج من أعلى جبهته أفعى بعين واحدة فقضى عليهما ثم مضى في الطريق والأفعى منتصبة على رأسه" وواصل رواية الحلم: " ثم رأيت هذا الشخص يمر بجوار بيتنا وهو برفقة شخص ثانٍ وتحدث عن أمي - أي أم الحالم - على أنها أمه، ثم في الاتجاه الذي مضى فيه ذلك الشخص رأيت نفسي مع الشخص الثاني نمضي في الطريق".

يبدو لنا أن هذا الحلم يرتبط بالجانب الديني، فهذا الشخص يرى في نفسه قوة على دفع السحر وبالتالي تواجد رمزها بشكل أفعى، ويبدو أن هذه القوة عقلية نفسية. فالأفعى رمز التغلب على السحر. وفي الرأس رمز الفكر. لكن السؤال المهم هو لماذا لم يرى نفسه أنه صاحب الأفعى إلا بعد اختفاء الشخص الأول؟

لعمل الرقابة كما أشار إليها التحليل النفسي دور في السماح بمعالجة المكبوتات مع توفير الاسترخاء لمواصلة النوم. ومن أهم خصائص الأحلام هو حفظ التوازن النفسي - الجسدي بحيث يظهر الشخص الحالم بصورة غير معروفة لنفسه حين رؤيته في الحلم بصفة أو بعضو غير طبيعي بالنسبة له. ففي الوقت الذي يرى الشخص نفسه في الحلم بصفة غير مناسبة للجسد السوي؛ يكون بالضرورة يرى شخص آخر بتلك الصفة من أجل إتمام إخراج الحلم. ومن أجل ألا يحدث إخلال بإدراك الشخص لبدنه. وكل تصور غير طبيعي للجسد في الحلم يغدو مربعا حينما يكون حاضرا في جسد الشخص ذاته.

وإذن نستطيع أن نقول عن صاحب الحالة أن رؤيته لرجل بأفعى منتصبة على جبهته إنما هي رؤيته لنفسه في هيئة شخص آخر. وقد حدث هذا النوع من الحجب للمنع من الإخلال الجسدي النفسي. ونورد حلم آخر يدعم هذا التفسير؛ فقد رأى: " كأنه بجناحين طويلين كجناحي العقاب، ولا يستطيع الطيران بهما لإحساسه نوعا من التثاقل، ثم رأى نفسه يطير في فوق الأرض بجناحين يرفرفان لكن لا يراها".

فروية الجناحين من دون أداء لوظيفتهما يعد تخفيفا لرؤية عضو غير طبيعي يحل بالجسد. ثم بعد ذلك رأى نفسه في وضع الطيران من وجود مادي للجناحين.

الحالة الثالثة:

في هذه الحالة التي توضح بلوغ المعاناة النفسية أقصاها. نجد مثالا نقيًا لانهايار الأنا نفسيا وبدنيا وظهور ذلك في الأحلام.

بداية الاضطراب النفسي بحلم لم تجده هذه الحالة طبيعيا. لقد روت لنا الحلم التالي: " لقد رأيت كأني السيدة مريم، ورأيت كأني ألد من رجلي اليسرى".

ثم بعد مدة من الوقت انشغلت فيها مع العائلة، عادت لتقول لنا مرة أخرى حاكية الرواية لكن لا على أنها حلم ولكن على أنها إحساس خبرته خلال خلودها للنوم، قالت: " لقد أحسست كأني السيدة مريم وأحسست كأني ألد من رجلي".

وبعد فترة جعلت بالشهيق والإجهاش وهي مستلقية ثم الصراخ: " لا؛ إنهم هناك، أرجوك ساعدني، أنقذني منهم". وهي تشير إلى أماتها. ودخلت في فترة طويلة من الهذيان.

هذه الحالة التي كان لها مسار طويل جدا في العلاج الدوائي وغيره. أبدت الكثير من السمات التي تتعلق بفساد صورة الجسد. وبحكم مرافقتنا لها من قبل بداية المرض إلى ما انتهت إليه من شفاء يمكن أن نعطي ملامح لمسار انهيار صورة الجسد ثم ترميمها:

بعد رؤية الحلم المذكور دخلت في هذيان قوامه أنها حامل، وكانت تدلك رجلها اليسرى وتقول اخرج أيها الشيطان، باعتبار الحمل غير الشرعي مرفوض.

وكما تذكر الخبرة من التحليل النفسي، فالحلم يمكن أن يكون بداية للإصابة بالذهان (أوتو فينيخل). والتطابق مع الشخصيات التاريخية يدرج ضمن هذيان العظمة هو هنا شخص مريم عليها السلام. والذي اقترن عند هذه الفتاة مع هذيان الاضطهاد وسبب لها خسارة البكالوريا.

وفي مرة سألت الاختصاصي النفسي عن حمل مريم أ كان في رجلها؟. فلما أخبرها أن مريم عليها السلام حملت كباقي النساء في البطن. تحول ألمها إلى البطن.

في رسم الشكل الإنساني. رسمت رأسا من دون جسد. وسمته باسمها. ولما سألت عن باقي الجسد التبتت كمن تذكر شيئا. وبالمقابل كانت مرتبكة حول جسدها؛ في معرفة اليمين واليسار.

وفي مرحلة من مرضها كانت فعلا تقلد أصوات الحيوانات.

وعن أحلامها. في تلك الفترة لم تعد تراها كلية. إذا لم نقل أنها لا تتذكرها. وعن نفسها خاصة قالت أنها لم تعد ترى نفسها في الأحلام مطلقا.

بعد مرحلة من العلاج. خضعت لاختبار الشكل الإنساني مرة أخرى وقد رسمت شكلا إنسانيا كاملا. سمته يوسف (ونراه نحن يتعلق بخبرتها عن قصة يوسف عليه السلام وفيه دليل على عودة المكبوت أي رغبتها المحرمة).

وعن أحلامها قالت أنها ترى أحلاما تظهر فيه أحيانا.

ويمكن أن نجد نتيجة واضحة حول علاقة صورة الجسد الخاص بها وعلاقة ذلك صحتها النفسية وبكلامها. فهي أثناء إجراء الاختبار وعند ذكرها لأحلامها. تخلت عن الكلام لفترة وصارت تتأغي كالطفل تماما وتتصرف كالطفل عند دخول أشخاص لعيادتها. وتخلت عن الكلام وقلدت الحيوانات كأن تصيح كالديك. وهنا نجد تماثل هذه الحالة مع الحالة الأولى. بعد العلاج وقد استرجعت بعضا من صحتها النفسية. ذكرت شيئا عن أحلامها ورسمت شكلا إنسانيا كاملا.

خلاصة:

بتعريف التحليل النفسي للأنا " باعتباره كتلة من التصورات"²⁵ وأيضا هو "... إدراك الفرد لجسده وأن صورة الجسد هي النواة الأولى للأنا"²⁶؛ بحيث " يشتق الأنا في نهاية المطاف من الأحاسيس الجسدية ومن تلك التي تصدر أساسا عن سطح الجسد"²⁷. تستطيع أن نقول أنه من خلال الحلم والكلام يقوم الجهاز النفسي بتكملة الدور الحيوي لعمليات إرسان صورة الجسد.

والأحلام تعتبر من أهم العمليات النفسية والإدراكية الحيوية لموقعة الجسدي في النفسي. وهي أكثر أهمية لإرسان صورة الجسد وعلاقة ذلك مع مستوى الصحة النفسية. فمشاهد الصور في الأحلام خصوصا التي تحتوي الشخص صاحب الحلم تساهم في التماهي مع الآخر الذي هو الشخص ذاته مثلما يحدث مع التماهي خلال مرحلة المرأة التي ذكرها جاك لكان في نظريته حيث تطلق هذه المرحلة نماذج الإنشاء الرمزي للمتاهي. والوعي الحاصل من تأويل الأحلام هو مثل الخبرة التحليلية. جعل الشخص على بعد نفسي مع ذاته وبموضوعية حيث الأنا راء ومرئي في نفس الوقت. فالوعي كما وصف هيجل هو وعي بذاته مزدوجا ينشأ بين شخصين في علاقة، باعتبار أن الوعي بذاته للشخص إنما يكتشف نفسه في وعي بذاته آخر لشخص آخر. فوجودي وقد عثرت عليه بفضل علاقتي بالآخر (صورة مرآوية، أو مرء مشابه) هو مشوب ومرهون بالغيرية التي يرافقها الشعور بالاستلاب. ورغبة الوجود تسقط في الآخر في شكل منافسة مع الآخر. مما ينتاب الفرد رغبة في اختفاء الآخر²⁸. وهذا الوعي بالآخر مع اختفائه أو اختفاء الأنا لا يكون سويا إلا في حالة الحلم الذي نجد فيه تحقق الوعي كما وصف هيجل. وفي الحلم حيث يمكن للجسد أن يشاهد نفسه لا تعود مشكلة إدراك الجسد التي يناقشها ميرلو بونتي موجودة من حيث أن " القول إنه دائما بقربي ودائما هنا بالنسبة لي، يعني القول إنه ليس فعلا أمامي، وإنما لا أستطيع بسطه تحت نظري. (...)، بينما جسدي لا ألاحظه بالذات: فلكي أقدر على ذلك؛ يجب أن أملك جسدا آخر لا يكون خاضعا للملاحظة"²⁹.

ونكتب كنتيجة : يتم اختيار نموذج للمتاهي للجسد الخاص في الحلم رجوعا إلى الإنسان، أو الحيوان. تبعا لمستوى الحالة النفسية للشخص وتبعا أيضا لنمط التعابير اللغوية التي يستعملها.

المراجع:

- 1 - روي شافر، الدراسة التحليلية النفسية لمحاوى الرورشاخ، تر: محمد أحمد محمود خطاب، مصر، الأنجلومصرية، 2012، ص 132
- 2 - زيور مصطفى، الأحلام والرموز الحلمية، الثقافة النفسية، العدد التاسع، المجلد الثالث، جانفي، 1992، دار النهضة العربية، بيروت، ص 22
- 3 - جان لابلاتش، ج.ب بونتاليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ترجمة مصطفى حجازي، المؤسسة الوطنية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 1997 ص 268.
- 4 - أ. ف. بترفسكي، م. ج. ياروشفسكي، معجم علم النفس المعاصر، ترجمة: حمدي عبد الجواد، سعد الفيشاوي، عبد السلام رضوان، القاهرة، دار العالم الجديد. القاهرة، الطبعة الأولى 1996، ص 309
- 5 - عاطف خليل نجلاء، علم الاجتماع الطبي، مصر، الأنجلو المصرية، 2006، ص 222.
- 6 - بلهوش رفيقة، طبيعة الصورة الجسدية والسير النفسي بعد الإصابة بحروق ظاهرة، 2007، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر، ص 18.
- 7 - سيجموند فرويد. تفسير الحلام. تر: مصطفى صفوان، درا المعارف، مصر، بدون سنة طبع، ص 359.
- 8 - الثقافة النفسية، العدد الأول، المجلد الأول، دار النهضة بيروت، 1990، ص 22.
- 9 - عاقل فاخر، معجم العلوم النفسية، دار الرائد العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1988، 119.
- 10 - عبد المنعم إيناس، البناء النفسي للأنثى المختنة، 2001، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة عين شمس، مصر، ص 60.
- 11 - زيور مصطفى، الأحلام والرموز الحلمية، الثقافة النفسية، العدد التاسع، المجلد الثالث، جانفي، 1992، دار النهضة العربية، بيروت، ص 19 - 20.
- 12 - جان لابلاتش، ج. ب بونتاليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ترجمة مصطفى حجازي، المؤسسة الوطنية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 1997، ص 180.
- 13 - نفس المرجع، ص 181 و 182.
- 14 - نفس المرجع، ص 64.
- 15 - فاخر عاقل، معجم العلوم النفسية، مرجع سابق، ص 115.
- 16 - جان لابلاتش، ج. ب. بونتاليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، مرجع سابق، 192.
- 17 - نفس المرجع، ص 198.
- 18 - باستيد روجيه، السوسولوجيا والتحليل النفسي، ترجمة وجيه البعيني، دار الحداثة، الطبعة الأولى 1988 ص 149.
- 19 - جيلبار دوران، الأنثروبولوجيا رموزها، أنساقها وأساطيرها، ترجمة مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1993، ص 48.
- 20 - أوتو فينixel، نظرية التحليل النفسي في العصاب، الجزء الثاني، مصر، الأنجلو المصرية، 1965، ص 253.
- 21 - سي موسي عبد الرحمان، محمود بن خليفة، علم النفس المرضي التحليلي والإسقاطي، الجزء الأول، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009، ص 230.
- 22 - بسام بركة، المرض العقلي واضطرابات اللغة العربية، الثقافة النفسية، العدد العاشر، المجلد الثالث، نيسان، 1992، ص 117.
- 23 - أوتو فينixel، نظرية التحليل في العصاب، ج 02، ص 148.
- 24 - جان. لابلاتش، وج.ب. بونتاليس، مرجع سابق، ص 60.
- 25 - جان. لابلاتش، وج.ب. بونتاليس، مرجع سابق، ص 100.
- 26 - أوتو فينixel، ج 02، مرجع سابق، ص 833.
- 27 - جان. لابلاتش، وج.ب. بونتاليس، مرجع سابق ص 108.
- 28 - نيفين زيور، من النرجسية إلى مرحلة المرأة، الأنجلو مصرية، ط 01، 2000، ص 21.
- 29 - ميلرو بونتي، ظواهرية الإدراك، تر: فؤاد شاهين، معهد الإنماء العربي، بدون سنة طبع، 86.